مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٥) العدد (٤)
الإصدار الثامن عشر
٢٠٢٤ (١-٩)

مطلب التأصيل في الفلسفة السياسية الحديثة

خاليد الخطاط بن المحجوب

أستاذ محاضر، عضو مختبر الإنسان والمجتمعات والقيم،

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٧ نوفمبر ٢٠٢٤م

الملخص

يعكس الحوار بين العلم والفلسفة في العصر الحديث وجود صلات وثيقة بينهما، تدعمها وحدة النسق النظري ومنطق تشكّل الفكر. وإذا كان العلم الحديث قد شيد لنفسه نموذجًا علميًا خذ بمبدأ التأصيل المتمثل في عزل الظاهرة العلمية وتنقيتها من كل الشوائب المضافة إليها، بغية تحديد أسبابها وقوانينها، فإن الفلسفة الحديثة، وخصوصًا السياسية منها، قد استدمجت هذا المفهوم "التأصيل" في سيرورة بناء نظريتها في المجتمع.

من هذا المنطلق، تي هذه الورقة البحثية المعنونة بـ " مطلب التأصيل في الفلسفة السياسية الحديثة" لتقارب السؤال الآتي: ما المقومات والمسوغات المنهجية والفلسفية التي جعلت نقل مبدأ التأصيل من مجال الاشتغال العلمي إلى مجال الفلسفة السياسية الحديثة ممكنا؟

لتحقيق هذا الهدف، سنتناول الإشكالية عبر محورين رئيسيين: أولاً، في مبدأ التأصيل العلمي والفلسفي؛ و نيًا، تجليات حضور مبدأ التأصيل في نظرية المجتمع الحديثة من خلال نموذجي: توماس هوبز وجان جاك روسو.

الكلمات المفتاحية: التأصيل، الفرضية، الذات، الخلق، المجتمع.

Abstract

The dialogue between science and philosophy in the modern era reflects the presence of close connections between the two, supported by the unity of theoretical structure and the logic of thought formation. While modern science has constructed a scientific model based on the principle of "foundation," which involves isolating the scientific

phenomenon and purifying it from all external influences to determine its causes and laws, modern philosophy, particularly political philosophy, has integrated this concept of "foundation" in the process of building its theory of society.

From this standpoint, this research paper, titled "The Demand for Foundation in Modern Political Philosophy," addresses the following question: What are the methodological and philosophical foundations and justifications that made the transfer of the principle of foundation from the field of scientific inquiry to modern political philosophy possible?

To achieve this goal, we will address the issue through two main axes: First, the principle of foundation in science and philosophy; and second, the manifestations of the presence of the principle of foundation in modern social theory through the models of Thomas Hobbes and Jean-Jacques Rousseau.

Keywords: foundation, hypothesis, self, creation, society.

«الحداثة هي لأساس قضية منهج وزاوية نظر مفهومية، وبعبارة أدق، هي معاودة اعتبار القضا والمعطيات القديمة نفسها من منظور جديد، انطلاقا من الذات، كما تجسد ذلك عمليا في الفلك الحديث وانتقل بعد ذلك إلى الميتافيزيقا، ثم امتد إلى السياسة والقانون مرورا لأخلاق والجمال والتاريخ...» الباحث المغربي عبد المجيد عكريم.

***مقدمة**

تعبر الفلسفة السياسية في الفترة الحديثة عن وجه من أوجه الجدة التي عرفتها الفلسفة الحديثة برمتها. وإذا كانت هذه الأخيرة تقدم نفسها بوصفها ثورة على الفلسفات السابقة، فإن الأمر يقتضي بمنطق الكشف النظري الذي بسط مضمونه عبد المجيد عكريم في كتابه المعنونـــ "في المنهج: منطق الكشف النظري العلمي والفلسفي" الوقوف على ما عرفته منطلقات التفكير الفلسفي ومبادئه من تغير وتبدل في مضمونها، وتحل وتوار بحسب مقتضيات الإشكالات السياسية الفلسفية المطروحة، وما اقتضاه النظر منها لتقديم مواقف حائزة على معقوليتها ضمن النسق الفلسفي المتقوم لمفاهيم والمنهج.

لقد شكل تبلور مفهوم الذات مع ديكارت حجر الزاوية في قلب منطلقات الفلسفة السياسية الحديثة ومبادئها وانقلاب في طوبولوجيا مفاهيمها، واتخذ من التأصيل منهجا ومنطلقا. ليسهم في انبثاق أنساق فلسفية جديدة، منها ما تجلى بوضوح في النظرية السياسية الحديثة مع فلاسفة العقد الاجتماعي التي استوعبت نتائج الثورة الكوبرنيكية في الفلك، وإنجازات الجاليلية في الفيز ء وفلسفة الذات الديكارتية، جاعلة منها خلفيات نظرية: علمية أكانت أو فلسفية، أعادت بفضلها تنظيم علاقة الذات لآخر والمجتمع و قي مكو ت الوجود الأخرى.

*** مشكلة البحث**

يجمع فلاسفة العقد الاجتماعي على أن حالة الطبيعة بوصفها صيلا للمجتمع على أنها الحالة البدائية التي وجد عليها البشر أول أمرهم. لكن استدعاءها في سياق بناء موقف فلسفي بخصوص المجتمع لا يعدو أن يكون سوى مجرد تسويغ فلسفي يحتاجه الفيلسوف لفهم حالة المجتمع القائمة بما هي حالة اصطناعية حاصلة، يصعب معها استنباط منطق تشكلها وتستحيل معرفتها على نحو محق في بعدها الواقعي التجريبي. وبناء عليه، تبحث هذه الورقة في المقومات والمسوغات المنهجية والفلسفية التي جعلت نقل مبدأ التأصيل من مجال الاشتغال العلمي إلى مجال الفلسفة السياسية الحديثة ممكنا؟

*** ما يميز هذه الدراسة عن غيرها**

إن ما يميز هذه الدراسة عن غيرها يتمثل في إبراز أوجه الحوار القائم بين العلم والفلسفة من خلال مبحث الفلسفة السياسية الذي غالبا ما ينظر إليه على أنه مبحث أقرب إلى الفلسفة العملية منه إلى الفلسفة النظرية على حد التمييز الذي أقامه أرسطو. إن هذه الدراسة تفتح لنا أفقا بحثيا آخر يكمن في إعادة رسم العلاقة بين علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية المعاصرة انطلاقا من الموقف القاضي بوحدة النسق النظري ومنطقه. ويعتبر مؤلَّف "في المنهج: منطق الكشف النظري العلمي والفلسفي" للباحث المغربي عبد المجيد عكريم الصادر عن دار الثقافة سنة ٢٠٢٤ مصدرا أساسا يفيد في الكشف عن المنطق المتحكم في سيرورة الحوار القائم بين العلم والفلسفة. ولأنه كذلك، سنحاول جاهدين في هذه الورقة أن نستفيد من هذا المجهود غير المسبوق متخذين منه منظارَ فحص لعلاقة العلم الحديث بمبحث الفلسفة السياسية الحديثة خصوصا ما تعلق بمطلب التأصيل الذي استوجبته نظرية المجتمع الحديثة.

أولا: في مبدأ التأصيل العلمي والفلسفي

يبقى النموذج العلمي الفيز ئي الذي قاد غاليلي لبناء نظريته في سقوط الأجسام سقوطا حرا في الفراغ عاملا ابستيميا للأخذ مكانية التخيل والافتراض، لامتناع القيام لتجربة والتحقق العيني من الفرضيات. إن هذا المنظور الجديد لإعادة تنظيم العالم الطبيعي وظواهره العلمية، فتح المجال أمام إمكانية التفكير في خلق المجتمع من لدن الفلاسفة على شاكلة خلق العالم للتجربة في انضباط م لروح التفكير التي طبعت هذه الفترة، والتي آمنت بقدرة الإنسان وإمكانياته. فحتى وإن كان الإنسان جسما لا يساوي شيئا لقياس إلى امتداد العالم، فإن قيمته لا تتحدد لحجم أو المقدار بماهي أحوال للامتداد، بل تقاس لفكر.

العالم امتداد قاصر وعاطل، والإنسان عملاق بفكره لا متداده، فمهما كان العالم عظيما وضخما «فإن حجمه يظل معقولا لنسبة للإله، وهكذا كان منذ بداية الخلق، وأن ما وقع مع النظرية الفلكية يخص فحسب حجم الإنسان المادي، ولكن يبقى بدون أدنى أثر على حجمه المعنوي والأخلاقي العظيم» (عبد المجيد عكريم، ٢٠٢٤،ص٢٠٧) لقد تنحى براديغم الموضوع ليحل محله براديغم الذات الذي جعل من الذات المفكر نقطة البداية التي ميزت الأزمنة الحديثة. هكذا جعل ديكارت من الذات نقطة بدء لإعادة خلق العالم. وهذا الموقف الميتافيزيقي نجد ثيره القوي بَيِّنٌ في نظرية المجتمع الحديثة.

لقد رأى ديكارت في الكوجيطو فكرا محضا، مهمته الوحيدة هي التفكير. وكونه جوهرا يعني أنه مكتف

بذاته. ويمكنه أن يؤدي مهمته حتى لو لم يوجد الجسم. فالجسم مجرد امتداد، والامتداد لا يفكر.

الأ المفكر نقطة ارتكاز هامة جديدة للعلم والفلسفة، بعد أن اتضح أن الأرض ليست نقطة ارتكاز مادامت تتحرك. وبحركتها يسقط أساس المعرفة المطلقة. فلا مجال هنا لتعريف الإنسان على أنه حيوان عاقل، فالحياة خاصية الجسم والجسم ليس بتا ما دامت الأرض التي يقف عليها تجوب الفضاء. لا وجود لنقطة ارتكاز مادية نستند عليها. فنقطة الارتكاز الوحيدة الممكنة هي الفكر. وماهية الفكر تكمن في فعل التفكير وحسب. إنه متمايز عن موضوعاته، ذلك أن أفكاره ليست نسخا للأشياء وانطباعات عنها. فللأفكار واقعها الموضوعي والدليل على ذلك، أن الفكر لا يستطيع أن يبدل فيها ويجعلها غير ما هي عليه.

على أساس المنظور المعطى للكوجيطو الديكارتي، أُعتبر مفهوم الذات نقطة ارتكاز جديدة، بموجبها صار يُنْظَرُ للكائن الإنساني على أنه ذات مفكرة حرة، قادرة على أن تفكر وتقدر وتحكم وتقوم بعيدا عن أي ثير خارجي، إنها تسمع لصوت الأ المفكر. يورد عبد المجيد عكريم في مؤلفه في المنهج: منطق الكشف النظري العلمي والفلسفي فقرة لغة الأهمية، تصور المسار الذي نقل الذات من مستوى المطلب المنهجي والمفهومي إلى أن تصير مذهبا فلسفيا قائما بذاته: «لقد سبق أن قام كوبرنيكوس بحل المشكلة الفلكية لارتداد إلى الملاحظ، وها هو كبلر يحل المشكلة الميتافيزيقية المترتبة عن الحل الكوبرنيكي، لارتداد أيضا صوب الذات، وهكذا سيفعل الفلاسفة المحدثون عند مباشرتهم للمشكلات القديمة والجديدة، حيث سينهض مفهوم الذات بدور منهجي ليصير في النهاية مذهبا وفلسفة» (عبد المجيد عكريم، ٢٠٢٤، ص٢٠٨).

هذا المفهوم الجديد شكل الشرط اللازم لأن يتأسس المجال العملي على تصورات جديدة محمولة عن الإنسان بعيدا عن النظرة الستاتيكية العابثة بماضيه التي تتخذ من التفسير المكاني مرجعا لها. ما كان إذن، لنظرية المجتمع والسياسة أن تكون مؤسسة في العصر الكلاسيكي على أي معطى تكويني زماني، يفسر الحاضر لماضي ويرجعه إلى أصله في ظل تصور يحدد غاية الإنسان ووظيفته من خلال الموقع الذي يشغله داخل النظام.

ثانيا: تجليات النموذج العلمي للفيزياء الحديثة في نظرية المجتمع

يظهر ثير علوم العصر في طريقة التناول الفلسفي للإشكالات مع هوبز. ولا شك أن فلسفته الطبيعية تشهد على ذلك التأثير القوي: فالعالم عنده مؤلف من جزئيات مادية تتحرك ميكانيكيا. وهكذا كانت فلسفته محكومة بمرجعية ميكانيكية صرفة. لقد حاول أن يفهم المجتمع والسياسة فهما عقليا وعلميا. إنه يرى أن الطبيعة الإنسانية بتة لا ريخية بشكل أساسي.

وهو في دراسته للمجتمع لم يكتف لمنهج الوصفي وتعميمات قائمة على دراسة الأحداث الجزئية. لقد كان اختياره للمنهج مرهو لقدرة على شرحٍ أعمق للظواهر الاجتماعية المعاشة لارتداد إلى الأصل الذي يمكن الانطلاق منه والبناء عليه.

إن البحث الذي قاده هوبز لفهم المجتمع ومنطقه الوظيفي، انطلق من الإنسان لتفسير المجتمع، وفي ذلك ارتداد للأصل بتحليل المركب وإرجاعه إلى ما هو بسيط ليعاد تركيب

الأجزاء من جديد. ونجد في كتابه حول المواطن مثالا شاهدا على ذلك حين يستخدم الساعة للتشبيه والشرح. ففهم الكيفية التي تعمل بموجبها الساعة، تفرض تفكيكها ودراسة مكو نها وخواصها، وإعادة تجميع هذه الأجزاء على نحو يضمن للساعة العمل من جديد. بهذه الطريقة يتم الكشف عن الكيفية التي تربط بين أجزاء الساعة لفهم ما الساعة. وهذه الفكرة هي التي طبقها بطريقة مماثلة على المجتمع، وهي ما افتتح به مؤلفه الليفيتان قائلا: «إن الطبيعة (أي الفنُّ الذي صنع به العالم ويحكمه) يقلدها فَنُّ الإنسان، كما يقلّد أشياء كثيرة أخرى، إلى حد إمكانية صنع حيوان اصطناعي. وبما أننا نرى أن الحياة ليست إلا حركة للأطراف تكمن بدايتها في قسم رئيسي ما في داخلها، فلماذا لا يمكننا القول إن لكل الآلات (التي تتحرك ذاتيا بواسطة [نوابض] وعجلات كما تفعل الساعة) حياة اصطناعية؟» (توماس هوبز، ٢٠١١، ص١٧).

إن القسمة التي يتحدث عنها هوبز هاهنا، لا تعني قسمة واقعية، وإنما هي قسمة متخيلة قائمة على منهج تفكيكي تركيبي. وهكذا، فإن المجتمع يشرح على أساس أجزائه المكونة له والوظائف الرابطة بينها. فالكل لا يُفْهَمُ إلا جزائه وخواصها ووحداته الوظيفية. وهذا المعطى سمح لهوبز بتجاوز مستوى الملاحظة إلى ما هو أعمق. فعناصره المكونة هي كائنات بشرية متمتعة لاستقلال الذاتي، يكمن هدفها الرئيس في حفظ الذات الذي يفسر جميع رغبات الأفراد. والمجتمع هو تعبير عن اتفاق بين أفراد أ نيين، أملته الضرورة والمصلحة. و لمحصلة يكون الفرد وطبيعته أساسا لشرح المجتمع.

انسجاما مع رغبته في استنباط المبادئ الناظمة لنشوء المجتمع المدني والسياسي من الطبيعة الإنسانية. فإن الطرح الأرسطي القاضي ن الإنسان بطبعه حيوان سياسي لا تجد مكا لها في منظور هوبز. فهي بمثابة مسوغ قبلي يجعل من المجتمع معطى طبيعي لا يحتاج لأي تفسير. وإذا لم يكن المجتمع كذلك مع هوبز، فإنه من الأمور الاصطناعية التي ينبغي البحث لها على منطلق النشأة والتشكل.

يؤكد هوبز في الفصل الثالث عشر" في حالة الجنس البشري الطبيعية" من مؤلفه الليفيتان على أنه ينبغي التنويه قبل البدء في وصف حالة الطبيعة هذه، على أن هذه الحالة ليست واقعة ريخية مرت بها البشرية قبل أن تصل إلى حالة التمدن أو مرحلة تكوين المجتمع، بل هي حالة افتراضية أو فرض منطقي، أي حالة سابقة منطقيا على إقامة المجتمع المدني. رغم أنها تنطبق على بعض المجتمعات والقبائل الهمجية القديمة.

بموجب ما سلف، لم يعد المجتمع معطى طبيعيا بتا. إنه موضوع يمكن خلقه وتكوينه من جديد ليصير نتيجة بعدما كان منطلقا. وهو ما يعتبر وجها من وجوه التداعيات النظرية والفلسفية للثورة الكوبرنيكية. وفي هذا السياق يجمع فلاسفة العقد الاجتماعي على أن حالة الطبيعة ليست هي الحالة البدائية التي وُجِدَ عليها البشر أول أمرهم.

إنها مجرد تسويغ فلسفي يحتاجه الفيلسوف لفهم حالة المجتمع القائم منظور له كحالة اصطناعية حاصلة، يصعب استنباط منطق تشكلها على نحو يسير. فروسو نفسه يرى أنه «ليس لعمل الهين أن نفرز بين ما هو أصلي وما هو اصطناعي في طبيعة الإنسان الحالية، ولا لسهل أن نعرف حق المعرفة حالة لم تعد توجد، وربما لم توجد قط، ومن المحتمل

ألا توجد أبدا؛ ومع ذلك ضروري أن تحصل لنا عنها أفكار صحيحة حتى نحسن الحكم في حالتنا الحاضرة» (جان جاك روسو، ٢٠٠٩، ص٥٣-٥٤).

هكذا، تكون حالة الطبيعة غير مخصوصة ي حقبة ريخية، فهي مجرد مفهوم مجرد كأي مفهوم آخر، يسمح للفكر لتكون والبناء. وهذا المنحى الذي طبع البحث في أسس المجتمع في الفترة الحديثة مُسْتَمَدٌّ من النموذج العلمي الذي أسست له الثورة الكوبرنيكية وعلم الفيز ء الغاليلي والميتافيزيقا الديكارتية.

لقد لعب المنهج التكويني دورا هاما في إعادة تشكيل الظواهر العلمية بهدف الكشف عن قوانينها، وهو المنهج الذي وجه روسو في الإجابة على سؤال : ما الإنسان؟ الذي شكل الموضوع الرئيس لمؤلف خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر. يقول روسو بهذا الخصوص: « لنبدأ، إذا، زاحة جميع الوقائع فهي لا تمت البتة بصلة للمسألة» (جان جاك روسو، ٢٠٠٩، ص٦٦)

وإذا كان ديكارت قد نبه إلى ضرورة الانتباه إلى مسار تشكل الفكر وطريقه وتكونه، أي قبل التوجه إلى موضوع المعرفة ينبغي التركيز على فعل المعرفة نفسه إلى أن ت معه السؤال الهام هاهنا ليس هو: ما الموضوع الذي أعرفه؟ بل، كيف أتوصل إلى معرفته؟، وعلى أساس هذا المطلب جاء سيس فعل المعرفة مشروعا كتاب التأملات حيث يحاور فيها الفكر نفسه دون عودة إلى التجربة أو إلى الآراء السائدة، فإن هذا المطلب المنهجي نجد له بسطا صريحا في مؤلف إميل لجان جاك الذي يقول فيه: «فبعدما استعرضت مختلف الآراء التي أ رتني منذ ولادتي، وجدتها جميعها غير مقنعة على الفور وكلها قابلة للترجيح، وتوافقها مع وجداني يكون على درجات متفاوتة. وعلى أساس هذه الملاحظة الأولية، وبعد مقابلة الآراء المتعارضة مع بعضها البعض في إخراس م للأحكام المسبقة، وجدت أن أولى الأفكار وأعمها إلى الناس هي أبسطها وأقربها إلى العقل» (Rousseau, 2009, p 386).

ينطلق روسو في مؤلف خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر من البحث في الإنسان الطبيعي ليقدم نقده لأسس المجتمع القائم وليكشف أصل التفاوت الأخلاقي بين الناس فيه. فهو يعتبر أن معرفة أسس المجتمع مشروطة زاحة ما انضاف إلى الطبيعة الإنسانية بموجب المدنية. يقول روسو: «وإذا نظر إلى المجتمع الإنساني نظرة هادئة ومنزهة عن المنفعة فلا يبدو لنا منه إلا عنف البشر الأقو ء واضطهاد ضعفائهم، فيتمرد الروح على قسوة أولئك، أو يحمل على ر ء حالة الضلالة التي عليها هؤلاء. وإذ لبس بين البشر من شيء أقل استقرار من هذه العلاقات البرانية التي غالبا ما تصنعها المصادفات أكثر مما تصنعها الحكمة. وهي تلك التي نسميها ضعفا أو قدرة، غنى أو فقرا، بدت جميع المؤسسات البشرية لأول وهلة وكأنها مؤسسة على أكوام من الرمال المتحركة (جان جاك روسو، ٢٠٠٩، ص59).

يحاول روسو إذا، تحليل واقع الحالة المدنية وخلخلتها للكشف عما هو اصطناعي فيها، وما هو بت طبيعي في الفرد كذات مستقلة عن الجميع، بما هو أصل ونموذج خالص، يصلح لفهم حاضر المجتمع القائم. وحال روسو لا يختلف من الناحية المنهجية عن حال العالِم المشتغل على فرز الظاهرة الطبيعية ونمذجتها بلغة المفاهيم.

إن البحث عن الفرد في وضعه الطبيعي الخالص هو محاولة لتخليصه من كل الزوائد التي يمكنها أن تغلط

وتشوش، فكملـتُعْزَلُ الظاهرة العلمية وتفك ارتباطاتها مـيُعْزلُ الفرد للكشف عن القوانين المتحكمة فيه. وهو المطلب الذي ساهم فيه المنهج الفرضي الاستنباطي الذي سس عليه النموذج الفيز ئي لغاليلي، حيث احتلت الفرَضية فيه مركزا أساسا في دورة الاشتغال العلمي. إنه يبدأ لافتراضات، ثم ينتهي جراء التجارب والملاحظات التي تؤكد الافتراض أو تنفيه. العالم في هذا النموذج يخلق التجربة ويصنعها، لأن الطبيعة تحتاج إلى تدخل المجرِّب لعزل الظواهر ودراستها وتحديدها تحديدا كمِّيا ور ضيا بغية صياغة القانون العام بلغة رمزية ر ضياتية محكمة.

يؤكد روسو على أن تحديد مقومات منهج صيل تصوره للفرد في حالة الطبيعة، ينطلق من إجابته عن السؤال الآتي: «أي تجارب قد تكون ضرورية للتوصل إلى معرفة الإنسان الطبيعي، وما هي الوسائل لإجراء هذه التجارب من داخل المجتمع»(جان جاك روسو، ٢٠٠٩، ص٥٤). وهذا النزوع نحو التأصيل روسو نجد له حضورا في نظريته في التربية الطبيعية التي قضت بضرورة العودة إلى الطفولة ومعرفتها، واعتبار خصائصها دون إسقاط خصائص الرجل الراشد على الطفل الصغير.

إن فحص هذا المطلب المنهجي يضعنا أمام ما قد نعتبر مفارقة مبدئية. كيف للبحث في حالة الطبيعة أن يستقيم من داخل المجتمع؟ أو ليست هذه الحالة حالة منافية للمجتمع؟ ألا يعتبرها فلاسفة العقد الاجتماعي بما فيهم روسو نفسه حالة سابقة عن المجتمع؟

لقد فطن روسو إلى أن انتقال الإنسان من الطور الطبيعي إلى حالة المدنية، لم يتم وفق طريق مرسوم محدد المعالم والخطوات والمحطات. إن هذا السير، من منظور روسو، لا ينضبط لحركة مضبوطة الاتجاه، مسارها خال من منعرجات ومعطيات متخفية. وإذا كان الأمر هكذا، فإن فهم هذا الانتقال سيجعل الباحث في حاجة ماسة إلى تقفي ريخ النوع البشري بكل تفصيلاته، ما دام الإنسان قد اكتسب صفات انضافت إلى طبيعته خلال سيرورة تطوره، وطَوَتْ ولَفَّتْ خصائصه الطبيعية الأولى حتى أخفتها بين ثنا التحولات والتبدلات، واستعصت استعادتها في وضعها الطبيعي الخالص. هكذا يعيد روسو بناء ريخ هذا الانتقال بتوظيف مقتضيات المنهج التكويني الذي تطلب منه تفكيك وتحليل المجتمع ومضافاته لوضع اليد على نقطة بداية البناء(الأصل) التي تمثلها حالة الطبيعة بما هي نموذج احتمالي لا بداية زمنية له، معه تنتفي كل الوقائع والأحداث وتتأتى إمكانية تقديم نموذج تصوري للمجتمع.

اعتبارا لما سبق، ينبه روسو إلى مسألة لا ينبغي إغفالها للوقوف على منطلقات منهجه بخصوص تصوره للفرد في حالة الطبيعة وما سيسفر بحثه فيها من نتائج حين يقول: «لا يجب أن خذ البحوث التي قد نخوض فيها بصدد موضوعنا هذا مأخذ الحقائق التاريخية، وإنما كاستدلالات افتراضية وشرطية، أحرى بها أن توضح طبيعة الأشياء من أن تبين أصلها الحقيقي، وهي شبيهة لبحوث التي يقوم بها علماء الطبيعة كل يوم حول تكوين العالم» (جان جاك روسو، ٢٠٠٩، ص66-67). هذا التشبيه يفسر السبب الذي جعل روسو لاـيُنْظَرُ لحالة الطبيعة على أنها واقعة فعلية، وإنما كفرضية متخيلة وكفكرة منظمة، وحالها كحال الفراغ في الفيز ء الغاليلية. حالة الطبيعة إذا، تماثل الفراغ الفيز ئي الذي شكل نقطة بدء لبناء التصور الخاص بحركة الأجسام. إن حالة الطبيعة تشكل مرجعا نظر ، يُستخدم استخداما افتراضيا

شرطيا لتفسير الحالة المدنية.

***النتائج**

١- يظهر بجلاء ثر الفلسفة السياسية لكل من توماس هوبزوجان جاك روسو لنموذج الفيز ئي الذي وجَّه البحث في الطبيعة وَفْقاً لمقتضيات المنهج الفرضي الاستنباطي. فكما أن العلوم الغاليلية والنيوتونية والديكارتية تخلق لنفسها نموذجا إبستيميا مثاليا، يستمد صدقه من مثاليته الر ضياتية، فإنهما سارا على المنهج نفسه، ولم يسلكا مسلكا تجريبيا، سواء لحظة بحثهما في ريخ الإنسان المدني أو في الإنسان الطبيعي. لقد بحثا عن الإنسان الكلي بما هو نموذج يصلح كنقطة بدء للبناء، وليكون مرجعا لقياس الثابت والمتحول في الطبيعة الإنسانية.

٢- ثر هوبز وروسو لمنهج الذي اهتم بمسألة الأصل الذي هيمن في القرن الثامن عشر: أصل الإنسان، أصل اللغة، أصل المعرفة...إلخ. لقد اقتضى تحديد هذا الأصل تفكيك المركب الماثل إلى عناصره البسيطة المكونة له، ولذلك نجد روسو يستشهد بمؤلف التاريخ الطبيعي لبوفون في الخطاب الثاني.

٣- يحضر المنهج التكويني في سياق بناء نظرية المجتمع الحديثة ببعدين مختلفين: التأسيس أولا بما هو تحديد للأصول(حالة الطبيعة، الإنسان الطبيعي)، والتشكل نيا بما هو بنية داخلية محكومة بعلاقات ترابط بين المكو ت البسيطة (تكون المجتمع، تكون الدولة، تكون الشعب، تكون الإرادة العامة).

٤- لنسبة لجان جاك روسو، يحضر التكون في الخطاب الثاني بدلالات أنتروبولوجية لتحديد الضرورات والحاجات الطبيعية السابقة عن المواضعات المدنية والسياسية، ويحضر التكون في العقد الاجتماعي بدلالات سيس وخلق الجسم السياسي واصطناع المؤسسات لتعاقد والاتفاق. وهذا، فيما نعتقد، يسمح لنا لوقوف على التقابلات التي أفرزها المنهج التكويني الذي اعتمده روسو في دراسته للإنسان: (الطبيعة/المدنية)، (السكون، الحركة)، (الأصل، المتكون)، (الماضي، الحاضر)، (الطبيعي، الاصطناعي).

***التوصيات**

من خلال النتائج المتوصل إليها، وعملا بمنطق الكشف النظري العلمي والفلسفي الذي بلور منظوره الباحث عبد المجيد عكريم، يمكن استثمار هذا البناء الإبستيمولوجي لتعميق البحث في طبيعة العلاقة التي تجمع العلوم الطبيعية ومنهجها لعلوم الإنسانية المعاصرة لرسم حدود الاتصال والانفصال بينهما، ولتقعيد مباحث الإنسانيات التطبيقية على أسس خذ في حسبانها مطلب التكامل الذي تشكل فيه وحدة النظر إلى جانب المعقولية حجر الزاوية.

***خاتمة**

لرغم من الاتفاق الحاصل بين أصحاب نظرية العقد الاجتماعي بخصوص ضرورة الارتداد إلى حالة الطبيعة والبحث في الإنسان الطبيعي لمن أجل صيل واقعة المجتمع، و لرغم من أن هذا الاتفاق يتأسس على الأخذ بمبدأ التأصيل الذي ترعرع في علمي الفلك والفيز ء الحديثة، إلى أن مضمون التصور المعطى لحالة الطبيعة ووضع الإنسان الطبيعي فيها، يظهر بشكل قوي الاختلاف الحاصل بين منظري العقد الاجتماعي.

لقد خالف روسو فلاسفة العقد الاجتماعي السابقين عليه. وهذا التفرد، فيما نعتقد، إنما مرده لا يعود إلى ما توصل إليه من أفكار توصيفات لحالة الطبيعة بل هو في أصل تفرد في المنهج المعتمد والاحتياطات والتنبيهات التي

أخذ بها روسو في رحلة البحث في هذا الإشكال. صحيح أن كل الفلاسفة الذين انهموا لبحث في أسس المجتمع استشعروا ضرورة الارتداد إلى حالة الطبيعة إلا أنهم اختلفوا في تحديد أصلها ومبدئها.

*** المراجع**

***أولا– المراجع العربية**

عكريم، عبد المجيد. (٢٠٢٤). في المنهج: منطق الكشف النظري العلمي والفلسفي(ط.١)، الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة.

ديكارت، ر. (٢٠١٦). مقالة في الطريقة، ترجمة جميل صليبا(ط.١)، بيروت، لبنان: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع.

ديكارت، ر. (١٩٨٨). ملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج (ط.١)، بيروت، لبنان: عويدات.

روسو، ج.ج. (٢٠١٣). الكتا ت السياسية الجزء الأول، تقديم وتعليق وترجمة عبد السلام الشدادي(ط.١)، الر ط، المغرب: مركز دراسات الأزمنة الحديثة، مطبعة المعارف الجديدة.

روسو، ج.ج. (٢٠٠٩). خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ترجمة بولس غانم، تدقيق وتعليق وتقديم عبد العزيز لبيب (ط.١)، بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

هوبز، توماس. (٢٠١١) الليفيتان أو الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة د حبيب حرب وبشرى صعب، مراجعة وتقديم رضوان السيد(ط.١)، بيروت، لبنان: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ودار الفارابي.

ثانيا: المراجع الأجنبية

Descartes, R. (2009) *Méditations métaphysiques* (1ère éd).Paris, France : Flammarion.

Descartes, R .(1992). Discours de la méthode (1ère éd). Paris, France : Flammarion.

Rousseau, J.J. (2001). *Du contrat social ou principes du droit politique*, présentation, notes, bibliographique et chronologie par Bruno Bernardi (1ère éd). Paris, France : Flammarion.

Rousseau, J.J. (2009). *Émile ou de l'éducation*, présentation et notes par André Charrak (1ère éd). Paris, France : Flammarion.